مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 12 / العـدد:01 (مـــاي 2024) ص 157– 169
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

الآفاق الثقافية المقارنية في الأدب الجزائري وأبعادها

"الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان لأبي العيد دودو" أنموذجا

Comparative Cultural Horizons in Algerian Literature and its Dimension: "Algeria in the Writings of German Travelers" by Abu Al-Eid Dudu as a model

سماح بن خروف
Sameh Benkhrouf
جامعة محمد البشير الابراهيمي برج بوعريريج، (الجزائر)، sameh.benkhrouf@univ-bba.dz

تاريخ الاستلام: 2023/11/06	تاريخ القبول: 2024/03/10	تاريخ النشر: 2023/05/16

الملخص: يختلف الأدب المقارن كلية عن باقي الآداب في منطلقاته التأسيسية وغاياته القومية العالمية الشمولية، ويرمي إلى إدراك مدى مساهمة كل ثقافة من بين الثقافات التي يقارن بينها في إرساء قواعد الفكر العالم، كما ويدعو إلى تسليط الضوء على مجموع التقاطعات الثقافية التي تجمع الأمم والشعوب والحضارات، ويؤثث بذلك لتحديد ما يعرف بالخصوصية الثقافية المميزة لكل منها.

وهذا هو حال الثقافة الجزائرية التي وطّنتها كتابات الآخر الألماني الذي وصّف بطابع أثنوغرافي الهوية المحلية وقال ما يميزها بكثير من الموضوعية ونوع من الانبهار، فالهوية الجزائرية غير مستقرة بل نلفيها متفلّتة، لا يمكن الفصل في كنهها، ولكن الآراء المقارنية أثبتت بأنها تنتمي إلى العالم الإنساني الواحد .

كلمات مفتاحية: الأدب، المقارن، الثقافة، الثقافة الإسلامية، الأدب الجزائري، الرحالة الألمان.

Abstract:

Comparative literature distinguishes itself fundamentally from other literary disciplines by its foundational principles and its overarching objectives, which encompass both global and national perspectives. It aims to realize the extent to which each culture among the cultures it compares contributes to establishing the foundations of world thought. Additionally, it calls for highlighting the sum of cultural intersections that bring together nations, peoples, and civilizations, and to determine what is known as the distinctive cultural specificity of each of them, and this is the case of the Algerian culture that was inhabited by the writings of the other Germans, who described the local identity in an ethnographic manner and argued that it sets itself apart with a considerable degree of objectivity and a form of captivation. While the Algerian identity may appear unstable, it is more accurately perceived as fluid, with its essence indivisible. However, comparative perspectives have conclusively demonstrated its intrinsic connection to the broader human collective.

Keywords: literature, comparative, culture, Islamic culture, Algerian literature, German travelers.

المؤلف المرسل: سماح بن خروف، **الإيميل:** samsouma.abla@gmail.com

1. مقدمة:

لانفتاح العالم دوره البارز في تطوير الدّراسات المقارنة لأن ذلك يسمح بالاطّلاع والاحتكاك المباشر وغير المباشر بباقي الثقافات، ونظرا لانغلاق العالم الذي عاش فيه اليونانيون في العصور القديمة وجدناهم غير مؤهلين للدّراسات المقارنة لذا فإنه على المقارنيّ خوض غمار الترحال والتجوال بدافع الفضول لاكتشاف قوميته بالدرجة الأولى ومن ثم السموّ بها إلى العالمية.

وبفضل الأدب المقارن يكشف المقارنيّ عن جوانب وخصائص الأصالة في أدبه المحلي. ومن فوائد دراسة الأدب المقارن إبراز مدى تلاقح الثقافات والشعوب وتلاحمها الذي يتزايد ويتجدّد يوما بعد يوم. وهناك من اعتمد البحث في الأصول الإنسانية للتّعرف على القواسم المشتركة بين الثقافات المختلفة للشّعوب، والأمم فحصر بذلك مفهوم الأدب المقارن بالأدب الشّعبي وساد في أوربا إلا أنه لم يعمّر طويلا.

ويعود سبب انتقائنا لهذا العنوان إلى التركيز على كتاب "الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان" لأبي العيد دودو والتعريف به، على الرغم من أنه لم يتعمق أكثر في تحليل المقولات التي أحصاصها للرحالين الألمان التي تكتنز حمولات ثقافية وغزيرة فكريا بما يعتد بالفرد الجزائري وهويته وكذا مجتمعه في القرن التاسع عشر.

بالإضافة إلى أن ما شدنا هو الجزائر عبر هذا المنجز الأدبي الجزائري لم توصّف عبر الآخر الفرنسي بحكم الظروف التاريخية التي فرضها الاحتلال الفرنسي، بل عن طريق الألمان الذين آثروا أن يمروا بالأسواق والمقاهي والمقاطعات مادحين منبهرين، منتقدين، بل وحتى مستمتعين روحيا بوهدة الأضرحة التي صادفتهم في رحلاتهم المشوقة.

فكيف تجلّت نظرة الآخر الألماني للأنا والمجتمع الجزائريين على حدّ سواء؟ وما هي مميزات السياقات الثقافية التي قدمها فعل التأثّر لدى الآخر (الرحالون الألمان) بالمجتمع الجزائري حسب المدونة ؟.

لذلك تهدف الدراسة إلى إظهار اهتمام الآخر الغربي بالثقافة الجزائرية رغم الظرف التاريخي القاهر الذي كانت تعانيه في حينها، ورغم كثير من العراقيل التاريخية إلا أن المقارنة قائمة في مقولات الرحالة الألمان بخاصّة في حالات الاندهاش من طريقة التفكير والعيش والعادات والأعراف، والثقافة الشعبية، والطبيعة التي تحتفي بها الذات الجزائرية قبل أي زائر أو سائح في البلاد.

2. الأدب المقارن؛ المفهوم والأهمية:

يتوسل الأدب المقارن بالتاريخ ليتقاطع وتاريخ الأدب حتى يقرّر التشابهات بين الوقائع والأحداث مرورا بالعديد من التقاطبات التي من شأنها أن تنمّي وتوجه مسار المقارنيّ دون اضطراب ابستمولوجي قد يعكر بدوره من صفو مساره البحثي (قوميتان/ لغتان، كاتبان/ قضيتان، تماثلات/ تباينات، مكانان/ جنسيتان).

ويرى ماريوس فرانسوا غويار بأن على المقارنين ألا " يتخلوا عن البحث في المنابع التي قد تكون إحدى أهم الفضائل التي تساعدهم على الغوص، أكثر في التاريخ الأدبي لكل بلد" (غويار م.، 1988، صفحة 108)، مع اعتماد الوصف والتحليل كتقنية والاستناد إلى خطوات إجرائية تستدعي توظيف العديد من العلوم المتعلقة بالوعي الإنساني تساعد على استطعام الأدب بتحليات بعيدة كل البعد عن الروتينية المنفّرة لفهم الآداب فهما أفضل من ذي قبل. وقد تقاذفت الأدب المقارن آراء عديدة شكّكت في علميته وفنيته فاعتبر مجرد بحث تافه لا فائدة منه فهذا "هاري ليفن" يعده– الأدب المقارن– وجهة نظر لا علما ومادة.

إلا أن هؤلاء ومن وجّهوا انتقاداتهم الجارحة للأدب المقارن نسوا بأن فضائل هذا الأدب عديدة، إذ سمح للكثير من العلوم والمعارف بالولوج إلى عالمه، وهو مدعّم للكثير من النّظريات بإخصاب مجالاتها العقيمة كنظرية التلقي مثلا ؛ فالتقى معها فيما يعرف بالتأثير لأنها تؤمن بتأثر القارئ بالنص عند قراءته ومن ثم الفهم والتّفاعل.

وقد أتى الأدب المقارن حينها بما يعرف بالتلقي النقدي الذي يؤكد على ضرورة تلقّي الآداب القومية بمختلف جغرافياتها، ومن ثمّ نقدها، فهو نقد في جوهره بتبيان الاختلاف بفضل الحاسّة النقدية حتى يحصل ما يعرف بالتذوق ثم إن ما يقدّمه الأدب المقارن أكبر من كونه مجرد حلقة ضيقة تدور حول نفسها للاطّلاع والاحتكاك فقط لا غير وإنما يسعى لخدمة الآداب المحلية وتحديد مستواها الحقيقي، وتوسيع دائرتها بالانسحاب على الأجناس والأفكار والمعارف. كما يخدم بدوره سيرورة الأدب العالمي بتقريب وجهات النظر بين الشعوب منحصرا بذلك في العديد من النطاقات ومتوسّلا العديد من الوسائط والأدوات.

وظهر في فرنسا "ريجيس بلاشير" الذي درس شخصية وشعر أبو الطّيب المتنبي دراسة في التّاريخ الأدبي، وفي ألمانيا قام "كارل بروكلمان" بتأليف موسوعة ضخمة بعنوان تاريخ الأدب العربيّ، حيث عرّف بالشّعر الجاهلي وعرّف بالبديع، وتحدّث عن الأدب الأندلسي وعن قصّة ليلى والمجنون وأثرها في الأدب الغربي" (بلاشير، 1985، صفحة 87) وقام "تشارلز آدم" في الولايات المتحدة الأمريكية بعرض جهود المصلحين الأفغاني ومحمّد عبده، وكتب كتابا بعنوان الإسلام والتجديد في مصر.

3. إشكالية الأدب المقارن، والثقافة، والإبداع:

أولت المدرسة الفرنسية عناية كبيرة للتّأثير والتأثر وجعلتهما من أساسيات الدّرس المقارن، فانطلقت من إبراز مدى تأثير أدبها في الآداب القومية، واستخراج الظواهر التي تميزها وقد اتخذ التأثير أشكال متعددة كانتشار المذاهب والتيارات الكبرى، وتعتبر المدرسة الفرنسية عامل التّأثير ضرورة لابد منها في تحديد أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات والقوميات مع أنها كثيراً ما تتجاهله حين تحصره في دراسة الظواهر الأدبية التي يتم البرهنة عليها تاريخيا، وذلك بسبب سيطرتها الفكرية والأدبية على باقي الشعوب باسم القوة السياسية والاقتصادية" (محمّداه، 2010. 2011، صفحة 57). والتأثر هو أن يستلهم الكاتب عملاً أدبياً خارجاً عن قوميته وثقافته، ويقلّده بنسب متفاوتة مع أحقية التغيير والتعديل، قد يقتبس الموضوع ويحاكيه سلباً أو إيجاباً، وقد يتجاوز التأثر بالعمل إلى التأثّر بمذاهب نقدية أو مدراس أدبية كبرى ومعروفة. كما ينبغي استيعاب الأعمال المتأثر بها، وفهمها جيداً خاصة إذا تعلق الأمر بالأساطير اليونانية والملاحم القديمة التي يجب على الكاتب المستلهم/ المتأثر أن يحافظ على أصالتها مع الإبداع طبعا، والحال نفسه مع الغربيين في حال تأثرهم بالأدب العربي قديمه وحديثه.

ومن بواعث التأثير والتأثر أن أصالة العمل الأدبي وانبهار الآخر أو الأجنبي، بالإضافة إلى الحاجة الماسة إلى التنويع والخروج من الرتابة شكلا ومضمونا، فيطعّم الأديب أدبه القوي الذي يفتقر للكثير من الإبداع والتجديد.

ولهيمنة الثقافات الكبرى دورها في توسيع دائرة التأثير والتأثر بين البلدان والشعوب، بخاصة ثقافة المستعمر الذي يسعى حثيثا لنشر أفكاره وكتاباتها بمختلف أجناسها الأدبية، وترويجها بين المستعمرات لأنه المتلقي/ المتأثر الأسهل بالدرجة الأولى.

والتأثير نوعان إيجابي وآخر سلبي أما الأول فهو الناجم عن أعمال ضخمة فكرا وثقافة تنطلق من حيزها الجغرافي حتى يتم اعتمادها وإشعاعها عند الآخرين، بترجمة صحيحة غير زائفة أو مشوّهة للعمل الأصل، ومن أمثلة هذا التأثير الكتب المشهورة كألف ليلة وليلة، كليلة ودمنة، رباعيات الخيام، أعمال وليام شكسبير وإليوت.

وأما التأثير الثاني أي السلبي فينجم عن حركة التقليد البعيد عن العطاء المتجدد وكذا الترجمة الخاطئة، وكثيرا ما يقصد المترجم الحطّ من قيمة العمل المتأثّر به فيقوّله ما لم يقل، ويخرج عن نطاقه الدلالي مثلما فعلت "أنا بلاكيان" حين ترجمت أعمال الشاعر الفرنسي بودلير بطريقة غير صحيحة، وجعلت منه شعرا رمزيا وهو بعيد كلية عن ذلك.

وهذا لا يعني عدم وجود تأثيرات متبادلة بين الكتاب وآدابهم القومية، و"علماء الأدب المقارن لا يبحثون عن نسبة بين أدب وآخر، بل عن سلسلة من النسب لا يهمها أن تكون متفاوتة، مع ضرورة إقامة الدقة في إقامة

علاقات التأثير، واختيار أدباء نموذجيين ومن بيئات صالحة للتأثر وذلك للمحافظة على الطابع الإنساني للدراسات المقارنة، فيتم الاهتمام بالفرد واللغة والأثر، والأمة، ثم يأتي دور التأثيرات الخارجية المتبادلة بين الآداب القومية (غويار م.، 1988، الصفحات 88- 89).

1.3 الثقافة الإسلامية في الأدب المقارن:

لطالما اعترف الأدب المقارن بصدارة الإسلام ومكانته، ومدى تأثيره في الآداب الأوروبية ولقد حقّق الأدب المقارن إنجازات واسعة في هذا المجال بدءا بالتركيز على ملامح الثقافة الإسلامية في الأدب الأوروبي، متأثرا في ذلك بالآداب الإسلامية والمشرقية.

- **الأندلس معبر للثقافة الإسلامية في أوروبا:**

سلّم المقارنون الأوروبيون بأن الأندلس هي الجسر الذي مرّت من خلاله الثقافة الإسلامية إلى أوروبا ثم للعالم أجمع، ومن ملامح هذا العبور تأثر الثقافة الأوروبية بأخلاق الفروسية، والحب العفيف وقد تتبع الباحث الإسباني "خوليان ريبي

يرا" كيفية انعكاس مظاهر النخوة والشجاعة والغزل العفيف على المزاج الأوروبي، "فأضحى للمرأة مكانتها، بفضل ما راج في أشعار التروبادور الذي ظهر بعد التأثر بالموشّح الأندلسي، فأثرت هذه الأغاني على الشعر الغنائي في الآداب الأوروبية كلها وحتى في القرون التي تلتها" (الدين، 2003، صفحة 17).

وقد ظهرت المؤثرات الإسلامية على مختلف المستويات في الأدب الأوروبي، وذلك عبر مستويين اثنين:

1- المستوى الأول: المتعلق بالطبقة العليا والأغنياء، وتضم رجال الدين المسيحي وطبقة الفرسان واللغة الرسمية للكنيسة هي اللاتينية، ولطالما ضيّق الخناق على الأدباء والشعراء، مع التعصب للدين المسيحي ورفض أي مؤثر خارجي.

2- المستوى الثاني: تحقّق في هذه المرحلة ما يعرف باستقلال الآداب الأوروبية، فوجد الأدباء راحتهم التامة، وخرجوا عن سيطرة اللاهوت والكنيسة، وأتيحت فرصة التأثير للثقافة الإسلامية في الآداب الأوروبية، وهذا ما أقرّه العالم "أرتورو غراف" الذي أفاض في بحوثه كثيرا حول الأدب الإسلامي وأمداء حضوره في ثقافة الآخر، وقد تم محاكاة الأصول الإسلامية في مختلف القصص وذلك من خلال الرحلات التي قام بها القديسون المسيحيون.

بالإضافة إلى انبهار الحضارة الأوروبية في عمومها بالأدب العربي كمغامرات السندباد، وقصص السندباد البحري، والحسن البصري، والخضر ذي القرنين، ولا ننسى التأثير الكبير لرسالة الغفران في الكوميديا الإلهية لدانتيه

ألغيري، وقد عدّها المستشرقون الإسبان أحسن تعبير عن الأثر الإسلامي. حيث تغلغل الإسلام بقوة في عمل دانتيه الذي استمد جانبا كبيرا من مادته من الإسراء والمعراج التي أقرها كل من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وأمثلة حضور التراث الإسلامي في الآداب الأجنبية عديدة، ففنّد – هذا الحضور– فكرة التعصّب الديني، أو العداء للإسلام، ولفعل المقارنة يدها في تأكيد التقارب الشديد بين الحضارتين والأدبيين الذي مازال مستمرا إلى يومنا هذا. وقد تبين في الدراسات المقارنة أن الآداب الإسلامية قد غذّت العديد من الآداب القومية الكبرى، وزودتها بموضوعات خارقة ومتميزة في شكلها ومضمونها، كحكايات ألف ليلة وليلة، والمصباح السّحري ومعروف الإسكافي وغيرهم، كما أسهم الأدب المقارن في إبراز مدى التفاعل الشديد بين الأدبين وعمق الروابط والصلات الفكرية بين الأدب الإسلامي (عربي/فارسي) والأدب الغربي (الأوروبي تحديدا).

2.3 الأدب المقارن ورحلة الآداب والأجناس:

مازالت مسألة الأجناس الأدبية مطروحة وهي متغيرة وغير مستقرة لمقتضيات خارجية وأخرى لها علاقة بالقواعد الفنّية المشكلة للأدب، وحين يتغير الجنس الأدبي فهو لا يفقد طابعه أو ما يميزه وإنما يتكيّف مع المتغيرات الخارجية سواء تعلقت بحياة الإنسان ورغبته في التجديد، أو ما يطمح إليه الأديب في إبداعاته، وبما أنه يقرأ لغيره من الكتاب القدامى والمعاصرين فإنه سيتأثر بما يكتبون شعرا أو نثرا، وقد يتعرف إلى أنواع أدبية جديدة لم يسبق له أن اطّلع عليها في تراثه وثقافته.

ونظرا لاطّلاعه على العديد من الأعمال الأدبية السّابقة أو المعاصرة له في بداية تجربته الإبداعية، باعتبارها حافزا هاما ومهما يمرّسه، ويعلّمه مبادئ الكتابة الأدبية للولوج إلى ساحتها، فيتأثر بها شكلا ومضمونا، ويؤثّر فيها إذا استضافها في عمله الأدبي، فقد يوسّعها أو يطوّقها وفق السّياق الجديد لنصّه الأدبي، وبحكم انتماء الكتّاب إلى المجال الواحد (الأدب) فإنّ التّفاعل مع الأشكال والأساليب المتباينة، والمضامين أمر مفروض، فيتم استدعاء النّصوص من مختلف الأجناس الأدبيّة، لتتداخل وتتصل اتصالا يزيد من قوتها الدّلالية والجمالية لاكتسابها سياقا جديدا يثري بدوره النّص الحاضر والغائب على حدّ سواء.

كما يقف الأدباء أمام المأثورات الشّعرية والنثرية القديمة "الملاحم الإغريقية، والمسرحيات، والأساطير، الأشعار الغنائية والملحمية" منها، والحديثة "الرواية، القصة القصيرة، القصة القصيرة جدا"، فيتمعنون في مادتها وموضوعاتها ويستعينون بها، رغم انتمائها إلى العصور السّحيقة أو مواكبتها لعصرهم الذي يعيشون فيه، فتكون أكثر قابلية للتفاعل والتأويل، وتغدو مصدرا هاما للغرف منه شكلا ومضمونا وميدانا مهما للمقارنين الذين سيتتبعون القواعد المألوفة ومدى أمانة الكتّاب المتأثرين.

وتتموضع النّصوص الأدبية داخل العمل الأدبي وتثريه من حيث اللّغة والأسلوب والمضمون، وتتمازج التّجارب وتتلاقح الأذواق، حتى تغدو الأجناس لوحة جميلة تنسج من عذوبة الشّعر، وبديعيّة المقامة وغيرهما لذلك فإنّ تداخل الأجناس أمر بديهيّ ومتفاوت من أديب لآخر فقد جعلت" المناهج النّقدية الحديثة من الكتابة بكل أنواعها عبارة عن نصوص وألغت في الوقت نفسه قضية نقاء دم الأجناس الأدبية المختلفة" (الشويلي، 2001، صفحة 21)

ولن يسلم تداخل الأجناس من فكرة تداخل الخصائص الأسلوبيّة والجمالية بخاصة لكل جنس أدبي، ولعلّ ما نتج عن مسألة تداخل الأجناس الأدبية هو اقتراح بعض النّقاد أمثال "كارتر كولويل" دمج بعض الأجناس الأدبيّة في بعضها البعض كدمج القصّة القصيرة مع الرّواية سعيا إلى ما قد نسميه بذوبان الأجناس، ولكن أساليب التّعبير عن الرّؤى والأفكار تختلف من جنس أدبي لآخر.

فيميّز القارئ/ المقارنيّ بين مختلف البنى النّفسية والفنّية، وتتحقّق استقلاليتها على الصّعيدين الأدبي، والنّقدي فتفهم المقاصد والأغراض من هذه الأجناس ببساطة، ودون أي تشعّب في الأفكار حتى ولو كان هناك تداخل لذلك فإنّ "معرفة التّحديدات وفروق الاستخدام التي تفصل بين الأجناس الأدبية إنّما هو خطوة على الطريق نحو معرفة قصد الشاعر أو الرّوائي أو المسرحيّ" (عبد العزيز شبيل، نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري، جدلية الحضور والغياب، صفحة 64)، فيجد كلّ مستهوٍ لواحد من هذه الأجناس ملاذه وذائقته عبر هذه التّحديدات التي تصهر البناء اللّغوي لكلّ جنس أدبيّ، وتجعلهما في نسيج واحد رغم تعدّد الهياكل الكتابية واختلاف قواعدها.

4. الأدب المقارن والثقافة العربية:

كان الأدب العربي منذ زمن العباسيين مفتوحا على الآداب الشرقية والعربية، يأخذ منها ويعطيها، وكان عطاؤه أكثر من أخذه، فأثر في الأدب الفارسي واليونانيّ، واستفاد من الأدب الروماني والهنديّ، كما احتكّ الأدب العربي بالآداب الأوروبية في القرون الوسطى، حيث غذّى موضوعاتها الأدبية في ميدان الشعر وقصص الفروسية، وقصص الحبّ، بل إن الأدب العربي كان وعاء لنقل الآداب الإسلامية والشرقية إلى أوروبا فنقل إليهم التراث القصصي على لسان الطير والحيوان من الأدب الهندي ك كليلة وكدمنة، واتصل الأدب العربيّ بالأوروبي في عصر النّهضة والعصر الروماني عبر إبداعات مترجمة كحيّ بن يقظان وألف ليلة وليلة، لتوثق الصلة في العصر الحديث عبر تأثيرات ثقافية انجرّت عن حملة نابليون بونابارت في القرن الثامن عشر1798.

ونشأ الأدب المقارن عند العرب وفق ثلاث مراحل أولاها كانت بسبب الوعي النهضوي أو ما يعرف بالصدمة الحضارية، في بدايات القرن التاسع عشر حيث كان المثقف العربي يبحث عن ذاته وهويته في خضم

عالم غربيّ متطوّر، فبدأت المقارنة بين ثقافة الأنا والآخر، ومحاولة نقل ثقافة هذا الآخر إلى الوسط العربي ونذكر أبرز المؤلفات التي انبرت حينها: كتاب تخليص الإبريز في تلخيص أخبار باريز لرفاعة رافع الطهطاوي، وكتاب علم الدين لعلي مبارك مع التركيز على المقارنة بين المظاهر الثقافية" (حسام الخطيب، أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، 1983، صفحة 51).

أما المرحلة الثانية فكانت ذات طابع نقدي بحت تم فيها المقارنة بين القواعد النقدية والبلاغية بين الأدبين العربي والفرنسي، وقد حاول النقاد العرب إبراز مدى تفوق البيان العربي على البيان الفرنسي، نذكر منهم: خليل ثابت، أحمد كامل، أمين حداد، نجيب حداد، يعقوب صروف وغيرهم.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فيمكن تسميتها بمرحلة النضوج والإنتاج المقارن رائدها روحي الخالدي صاحب كتاب تاريخ الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هيغو، ونجد محمد غنيمي هلال الذي تشهد أعماله بريادة حقيقية في مجال الدراسات المقارنة، وقد تميز بجرأته في التعامل مع الآداب الغربية حيث لم يقف منبهرا أو معجبا بها، وكان كتابه أول "محاولة منهجية منظمة للتأليف في الأدب المقارن، ومنذ ظهوره طبع الكتاب عدة طبعات وظل مصدرا أساسيا للأدب المقارن في الجامعات العربية إلى يومنا هذا" (حسام الخطيب، أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، 1983، صفحة 58)، وراح غنيمي هلال يبحث عن الأصول العربية فيها ليفتح الباب لنقاد عرب كثيرين أخذوا بمنهجيته كمحمد عبد السّلام كفافي، جمال الدين بن الشيخ، محمد نور الدين، وطلعت أبو قرحة وغيرهم..

5. نظرة الآخر الألماني للأنا الجزائرية في كتاب "الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان" لأبي العيد دودو:

1.5 تجربة أبو العيد دودو:

سيتم انتقاء كتاب "الجزائر في مؤلفات الرّحالين الألمان 1830-1855 ولا يتعلّق الكتاب بالدّرس المقارن وإنما يحوي مقاطع دالة على اهتمام الألمان بالجزائر ومن شأن هذا الاهتمام أن يستنطق ملامح التأثير والتأثر بين الثقافتين الجزائرية والألمانية وكما يرى دودو فإن "الجزائريين لا ينقصهم الذكاء ولا المواهب ولا التطوّر.

وقد بدأ اتصالهم بأوروبا قبل نصف قرن (يقصد القرن 19) إذ سافر إليها كثير منهم، وزاروا بعض بلدانها وحصلوا على معارف متنوعة، أدت إلى ظهور مواهبهم المختلفة بصورة أوضح" (دودو، 1975، صفحة 10)، وهذا الاعتراف دليل على التثاقف الشديد بين أوروبا والجزائر ممّا أدى إلى إصرار الرحلين والدارسين على استكشاف أوجه التشابه والاختلاف بين الحضارتين أو البلدين والثقافتين.

2.5. المقولات الألمانية؛ من ملامح التأثر الألماني بالثقافة الجزائرية:

وضع الرحالة الألماني "كليمانس لامبينغ" كتابا بعنوان "ذكريات من الجزائر" نشره عام 1844 بمدينة أولدنبورغ، يصف فيه بعض المواطنين الذين كان على اتصال بهم، فهو يولي علاقته بهم اهتماما كبيرا يقول عن سكانها أنهم عرب أصلاء، وتحدّث عن معارك جيجل آنذاك ويقول أن القبائل كانت تهاجم معسكرات الجيش الفرنسي باستمرار يصرّح "لقد تعلّمنا القسوة من رجال القبائل الذين يدافعون عن وطنهم أكثر مما تعلموا هم منا الإنسانية والمدنية، ومن المؤسف أن الحرب وأهم شيء فيها السرعة، كما قال صديقي الجزائري، تحمل الإنسان أحيانا على أن يفقد إحساسه بالآخرين" (دودو، 1975، صفحة 195).

وهذا التعلّم (تعلم القسوة) ما هو إلا مؤشر على تأثر العنصر الأوروبي الألماني بالفرد الجزائري، والانبهار بشيمه وأخلاقه وحتى طريقة تفكيره كما صرّ العديد من الزائرين المثقفين منهم وغير المثقفين.

وقد قدّم الكاتب نماذج عديدة تتضمن معاينات لمناظر وتوصيفا لعادات المجتمع الجزائري آنذاك فتعدّ بمثابة المرجع الأساس للمقارنين العرب وغير العرب حيث إنّ كثيرا من الرحالين مثلا قد اتكؤوا على أعمال معاصريهم وحتى السابقين في إبراز عقلية الفرد العربي/ الجزائري، مثلما فعل "ديكر" الذي عنون كتابه ب ""رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836 ، 1837 و1838" صدر في مدينة لايبتسيغ سنة 1841 ويتكون كتابه من ثلاثة أجزاء، وصف في الأول مدينة الجزائر والمدن الأخرى التي شاهدها، وتحدث في الثالث عن تاريخ الاحتلال والمعارك التي حضرها، أما الجزء الثاني فقد خص به الفونة أو المجموعة الحيوانية" (دودو، 1975، صفحة 78) .والحرب الجارية هناك" حيث اعتمد على بيليسي وبوكلر موسكتو وروزيه وغيرهم، فشدة التأثير تزيد من رواج الكتابات والثقافات، وإن كان المنطلق تاريخيا بحتا (الاحتلال الفرنسي) حين استكشاف المجتمع الجزائري وعاداته وأعرافه.

وبعد هذا يتحدث "بوكلر موسكاو" " عن قبول الجزائريين لكل أنواع التحدي وعدم الرضا بالهوان ويقول عنهم أن أسلوبهم في المجابهة يفيض عزما وقوة ويضرب مثلا على ذلك دواب قبيلة كانت تسكن في نواحي دلس على رسالة بعث بها إليها الوالي العام...يهددها فيها بسبب اعتقالها لجنود غرقت سفينتهم قرب الشاطئ" (دودو، 1975، صفحة 79) وقد اقتصرت رحلاته على زيارة الجزائر والبليدة ووهران، وقد بعض الرحالة الألمان في إهداء كتاباتهم التي تناولت المجتمع الجزائري وثقافته بالتوصيف إلى ولي العهد الفرنسي ، لا تعصبا لفرنسا عدا "فاغنر" الذي تنامى في قلبه نوع من الحقد على الشعب الجزائري حيث نعته بالهمجي رغم كرم العسكر ورجال الأمير القادر معه.

وقد قدّم أبو العيد دودو ترجمة لرحلة "موريتس فاغنر" الذي "وضع كتابا عن الجزائر حرص على أن يقدم صفات مميزة للجزائري الباسل الذي يعتز دوما بنفسه وأمجاده وأجداده بل ويقارنها –الصفات – بصفات الفرنسيين

والإنجليز وقد زار "فاغنر" مقاطعة وهران، " ذلك أنه يتحدث فيها بمنطق عصره حين يصف من التقى بهم أو رآه أو سمع بهم ...ولمجرد أنهم يدافعون عن سيادة وطنهم..."(دودو، 1975، صفحة 125).

وهذا انطباع الرحالة فاغنر عن مقاطعة وهران، ويواصل رحلته المكتشفة للثقافة الجزائرية وللتاريخ العريق للغرب الجزائري تحديدا وحتى يطلع على النتاجات الأدبية للكتاب الجزائريين "كان مشروع رحلتي يتمثل في أن أتجه أولا من وهران إلى معسكر العاصمة الداخلية للمقاطعة الغربية، التي كانت حتى ذلك الحين مقر الأمير عبد القادر تحت حراسة عامل من عمال الأمير" (دودو، 1975، صفحة 126).

وشغفه بالتاريخ والأدب الجزائريين كان مؤشرا على علاقات التأثير والتأثر بين الثقافتين الألمانية والجزائرية، فسنحت هي الأخرى بتبادل الرؤى، وتعميق الأواصر بين البلدين، وقد حث الرحالة الألمان على قراءة النصوص الأدبية الجزائرية وترجمتها إلى الألمانية لفهم الذهنية واستكشاف التضاريس الخلابة المميزة للبلاد.

أما عن **الأسواق** يقول الرحالة " وكانت للجزائر أسواق تحتوي على أكثر من أربعين محلا، إلا أن القسم الأكبر منها، بل أجملها وأجدرها بالاعتبار قد هدم وقامت في مكانها محلات ودكاكين تجار أوروبيين"(دودو، 1975، صفحة 111) بالإضافة إلى التعريج على الوضع الديني وتحديدا على كيفية احتفال الجزائريين المسلمين بشهر رمضان وذلك عبر طقوس مميزة مريحة للسمع والبصر على حد سواء، مع التركيز على نوع الطعام الذي يتناوله الصائم فرحا بعبادته ومرحا فيم بعد بمشاهدة العروض الهزلية الليلية كعرض القراقوز " وثمة محل آخر يحظى بعدد كبير من الزوار في ليالي رمضان، وهو المسرح الشعبي أو القرقوز وهو عبارة عن قبو مظلم يحتشد فيه عدد من الأهالي ويجلسون فوق الأرض وأنظارهم متجهة إلى الشاشة، حيث تظهر الأشكال السوداء الناطقة التي تشبه خيال الظل الصيني في أوروبا" (دودو، 1975، صفحة 117) والمتمعن في قول فاغنر يستظهر فعل المقارنة بين الثقافة الشعبية المحلية الجزائرية والثقافية الأوروبية لا الألمانية فحسب، وهذا ما طرحناه سابقا كيف أن لهذا الحضور في كتاب من كتب الأدباء الجزائريين – دودو– قد أكد حدوث فعل التواشج الثقافي والالتقاء على مستوى التأثير والتأثر رغم ابتعادها عن مسار الدرس المقارني، ولكنها مادة دسمة لمن أراد أن يبعث في الملامح المقارنية داخل منجز أبي العيد دودو ومؤلفه القريب جدا من تقفي وكرف نظرة الآخر الغربي لشعب بلاده وثقافتها .

وهذه الأحداث التي سردتها الخطابات الرحلية الألمانية عن الثقافة والأدب الجزائريين إنما جاءت على صيغ توصيفية منتظمة، متأملة في الموجودات وبلغة شاعرية تستنطق كل مكون طبيعي مميز لمقاطعات البلاد، وهؤلاء الرحالة يسيحون في الجزائر وعلى سجيتهم يتبادلون الأحاديث الممتعة مع سكان المناطق، وكان فاغنر يصل " عن

طريقهم إ معرفة كل ما يجري في البلاد، ويحدّث في المقابل الشيوخ عن أوروبا وعن أعاجيب الحضارة، وعن الأحداث السياسية وعما تورده الصحف من أخبار جديدة" (دودو، 1975، صفحة 139).

وقد وصف الرحالة الألماني عديد المناطق والحمامات استنادا إلى مشاهداته رفقة الحاج بخاري وبعض رجاله وإلى ما قرأه من أعمال الأدباء الجزائريين بخاصة الأمير عبد القادر رائد النهضة حينها فيصف جمال السلسلة الجبلية المحيطة بسهل اغريس "وأخبرني الطالب أن " هناك خمسة ينابيع أخرى من هذا النوع تتبع في الوهدة، لكن مياهها أقل غزارة وأقل حرارة أيضا"(دودو، 1975، صفحة 173). فقد انبهر بالحمامات والمناظر الطبيعية الهادئة التي تمنى أن يتوغل أكثر فأكثر في مجاهيليها ويقول بجمالها عن جمالها خادما الأدبين والثقافتين الألمانية/ الجزائري على حد سواء.

6. خاتمة:

ارتكن منجزنا إلى جملة من النتائج وبعض المقترحات ومن أهمها:

- الأدب المقارن ذو مجال واسع استوعب بدوره الكثير من العلوم والفنون وكذا المعارف المتعلقة بوعي الإنسان، والأهداف المرجوة، جعل فتح الباب على مصراعيه لنشوب بعض الخلافات (التي تنازعتها بعض الأطراف لدحض أو نبذ أي توجه ذاتي قد تتدخل فيه البواعث القومية) أمرا يسيرا فتداخل بذلك هذا النمط الأدبي بغيره من النظريات النقدية والأدبية وكذا الآداب التي عالجت وإياه نفس القضايا وبالمنهجية والأساليب التقنية نفسها وظهر الأدب المقارن نتيجة الإيمان بفكرة نسبية الأشياء.
- انتشار فكرة تعتقد بأن العالم الذي نعيش فيه لا يمكن فهم الظواهر التي توجد فيه فهما سليما إلا إذا وضعت في إطار النسبية ومن الواجب هنا أن نؤكد بأن الأدب المقارن ليس هو الموازنات الأدبية فقط كما تراه المدرسة التاريخية أو الفرنسية وإنما هو جسر لتمرير الثقافات واستكشاف الرؤى المجتمعية المتباينة والأفكار المؤسسة للنصوص المشكّلة للآداب القومية.
- استطاع عديد النقاد الجزائري وبخاصة الأدباء المتأثرين بالآداب الغربية أن يستشكلوا ظواهر متباينة في كتاباتهم ونصوصهم، ذلك أن الذهنية الجزائرية كانت تتعطش دوما لمن يستنطق خباياها الثقافية والفكرية على وجه الخصوص، وهو ما فعله الكاتب الجزائري أبو العيد دودو الذي قدم لنا نظرات مغايرة نوعا ما، استطلعت معها أمداء رؤية الآخر/ الغربي للفرد والمجتمع الجزائري على حد سواء.
- وصّفت الأقوال التي قدمتها المدونة المختارة للدراسة على لسان الرحالة الألمان حياة الفرد الجزائري وحتى العربي في كثير من المواضع، فقد انبنت – الأقوال– على اعترافات الشعب البسيط والنخبة

المثقفة بعد التنقل بين المقاهي والمساجد والشوارع، كما توغلت في استجلاء العواطف المميزة للأفراد والجماعات، كما وقد قدمت جملة من الانطباعات حول المقاطعات في حينها أي في أوائل القرن التاسع عشر.

- سلطت المدونة الضوء على الحياة الاجتماعية والأعراف والتقاليد الدينية وتقديم صور شمسية جزائرية تتير وتستتير بالتاريخ أو ببعض الشخصيات التاريخية التي اشتهرت في ذلك الزمن كالقائد الأمير عبد القادر، وبطابع مقارني اعتمد تأثر الرحالة الألمان بالجزائر وأدبها وفكرها وسياستها وثقافتها، استطاع الكتاب أن يقول الأنا الجزائرية بلسان ألماني تبناه العلماء (فيلهلم شيمبر، فنكلمان، هاوف، شونبير، موريتس فاغنر، لافبينغ، بوفري وغيرهم...)
- ما نركز عليه هو أن مثل هذا النوع من الكتابات التي تؤثث لفكرة التأثير والتأثر بين الثقافتين الجزائرية والأجنبية يقتضي من الباحث الجزائري بخاصة أن ينقب أكثر ويقدم رؤى مقارنية ثاقبة تعدد مظاهر التنوع الثقافي، ومعالم الاتصال بين الثقافات والشعوب، فتستزيد بذلك المكتبة والنقد والدرس المقارني على حدّ سواء.

5. قائمة المصادر والمراجع:

أولا/ المصادر:

1. أبو العيد دودو. (1975). الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830– 1855. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

ثانيا/ المراجع:

1. داود سلمان الشويلي. (2001). الذئب والخراف المهضومة (الإصدار 1). بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
2. ريجس بلاشير. (1985). أبو الطيب المتنبي، دراسة في التاريخ الأدبي (الإصدار 2). (ابراهيم الكيلاني، المترجمون) دمشق: دار الفكر.
3. عبد العزيز شبيل (الإصدار 1). (نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري، جدلية الحضور والغياب). تونس: دار محمد علي الحامي.
4. ماريوس فرونسوا غويار. (1988). *الأدب المقارن* (الإصدار 2). (هنري زغيب، المترجمون) بيروت: منشورات عويدات.
5. محمد السعيد جمال الدين. (2003). *الأدب المقارن دراسة تطبيقية في الأدبين العربي والفارسي* (الإصدار 3). مصر: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع.
6. وجدان يحي محمّداه. (2010. 2011). الأدب المقارن في سورية، اتجاهاته وقضاياه. تأليف راتب سكر، *أطروحة دكتوراه* . كلية الآداب والعلوم الإنسانية .
7. حسام الخطيب، أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب. (1983). (صفحة الجزائر). ديوان المطبوعات الجامعية.